صحوة البراغيل : تعز والثورة اليمنية

فينسنت منصور بلانال

اليوم هو الـ15 من فبراير للعام 2011، في الأسابيع الأولى من الثورة اليمنية. يُنظِّم شباب ساحة التغيير في صنعاء أول المواكب الثورية، ويواجهون متظاهرين آخرين، جيّش النظام أكثرهم في المناطق القبلية لدعم رئيس الجمهورية. يصدَح الأولون بشعارهم "اِرحل يا علي صالح!"، بينما يردُّ الآخرون بقولهم "ارحلوا يابَراغلة!". إن كلمة "بُرغلي" (الجمع بَراغلة – أما استخدامنا لمصطلح "براغيل" فسيتم شرحه لاحقاً) هي لقبٌ يُطلق ازدراءً على الأشخاص المنحدِرين من تعز خصوصاً، وبنحوٍ أعم على سكان هذه المناطق الجبلية الوسطى المسماة بـ"اليمن السُّفلي"، والمحاذية لليمن الجنوبي سابقاً. وقد أثارت هذه التسمية المناطقية السّاخِرة استياءَ نوّاب المعارضة واستدعت ردّ فعلٍ رسمي من قِبل الحزب الحاكم1.

يقدِّم الحزب الإسلامي "الإصلاح" الدعم لهذه الاحتجاجات، ففي الجمعة التالية، كان عبد الله صعتر، أحد الشخصيات المهمة في هذا الحزب، يؤمُّ صلاة الجمعة في ساحة التغيير، ويرجِع أصلُه إلى عمران الواقعة في مناطق المرتفعات الجبلية، وقد حذَّر في خطبَته السلطات من التورُّطِ في "استخدام العقليَّة المناطقيَّة لتقسيم صفوف الشعب". وصرّح قائلاً: "إنّ البَراغلة هم قادة ثورة الفِكر والتغيير".2

---

1 **انظر الرابط التالي:**

http://www.14october.com/news.aspx?newsno=3003757, *14 October*, 18 février 2011.

آخر زيارة للموقع كانت في 13 يونيو 2011

2 **انظر الرابط التالي:**

http://marebpress.net/news_details.php?sid=31405, Mareb Press, 25 février 2011.

آخر زيارة للموقع تمت في 25 مايو 2011

وهكذا اتخذت تعز في هذا المشهد الثوري صفة الجبهة البعيدة عن المركز3، غير أنّ الدولة صبّت غضبها على الاحتجاجات في هذه المدينة عقب مجزرة 18 مارس في صنعاء، وخرجت المسيرات في أرجاء اليمن تطالب جميعُها بالدفاع عن هذه المدينة وعن هذا الإقليم برُمَّته، وبلغ الأمر ذروته في مجزرة 30 مايو عندما عمِدت الدولة إلى فضِّ الاعتصام في ساحة الحرية ليلاً باستخدام القوة المفرطة: فحرِّقت الخيام واجتُثَّت بجرافات الجيش، فخلّفت أكثر من خمسين قتيلاً وآلاف الجرحى. وهتف المتظاهرون في جميع أنحاء البلاد: "كلُّنا تعز"4 وتداول الناس في الإنترنت وفي وسائل الإعلام المحلية ما صار يُطلق عليه اسم "محرقة تعز"5.

ولنا أن نتساءل هنا لماذا ركَّز " الربيع العربي " في نسختِه اليمنية بغتةً على تعز؟ يمكن تفسير هذا الأمر في البدءِ من وجهة نظرٍ اجتماعية: فتعز تحتل مكانة مرموقة في مجال التعليم، ويشكِّل أهلها نسبة عالية جداً بين فئة الشباب الطلاب في العاصمة وبالتالي فهم أكثرية في ساحة التغيير بصنعاء.

لكن هناك بالطبع بُعد آخر للمسألة، إذ يبدو أن شيئاً ما قد تغيّر في الوعي التاريخي الوطني6. لقد أصبح اليمنيون يرون في تعز تجسيداً للتَّمدُّن الذي يطمحون إليه، ويتطلعون في الوقت ذاته لتحقيق مستقبل مشترك. فبالنسبة للمُراقب المهتم بدراسة مكانة تعز في التاريخ والمجتمع اليمني، تُعتبر هذه اللحظة السياسية بذاتها نقطة فاصلة. لأنه حتى ذلك الحين، كانت المدينة تتّسِم عموماً بوضعٍ يشوبه الغموض.

---

3 **انظر الرابط التالي:**

فبراير، مازن البذيجي، براءة ابن القرية وشهامة ابن الريف18أول شهيد في تعز، "
http://marebpress.net/news_details.php?sid=36227&lng=arabic
مارب برس، 29 اغسطس 2011، آخر زيارة للموقع تمت في 29 اغسطس .2011

4 **وقد أثارت عمليات القمع الأخرى شعارات مماثلة لا سيما فيما يخص التضامن مع الجنوب.**

5 **انظر الرابط التالي:**

عبد الحبيب العِزّي " هولوكوست ساحة الحرية بتعز"، يمن برس http://yemen press.com/article323.html, 1er juin **2011**,

آخر زيارة للموقع تمت في 21 اكتوبر 2011.

6 **نستعير مطصلح "الوعي التاريخي" من المؤلفين جان كوماروف Jean Comaroff وجون كوماروف John Comaroff المذكور في المرجع التالي:**

John Comaroff & Jean Comaroff, 1987. The madman and the migrant: work and labor in the historical consciousness of a South African people. American Ethnologist, 14(2), p.191 209.

للتذكير بمكانة تعز المركزية، يكفي ملاحظة التركيبة الجغرافية للجبال اليمنية، إذ تقع تعز على ارتفاع 1400 م فوق مستوى سطح البحر، في مفترق طرق على شكل "سرج حصان" على الطريق التجاري التقليدي الواصل بين تهامة وعدن والبحر الأحمر والمحيط الهندي7، كما تشكِّل نقطة العبور بين سلسلتين جبليتين: من جهة الشمال، جِبال إبْ، ومن ورائها الهِضاب العليا حتى صنعاء. ومن جهة الجنوب جبل صَبِر (3000 م) والحُجَريَّة التي تشكِّل قاعدة خلفية لميناء عدن ومستودعاً سكانياً من حيث تاريخ تعميرها بالسكان.

دفعت هذه المكانة المركزية الإمام أحمد ليتخذَّ من تعز عاصمةً له، من عام 1948 إلى عام 1962، فضلاً عن أن اليمن السفلي يُعدُّ المنطقة الأكثر خصوبة وكثافة سكّانية في البلاد، إذ يبلغ تِعداد سكان محافظة تعز وحدها 2.4 مليون نسمة، منهم حوالي خمسمائة ألف شخص مقيم في المدينة ذاتها بحسب الإحصاءات الرسمية. ويعمل التعزِّيون في المقام الأول في مجال الأعمال التجارية والتعليم، ويزاولون الكثير من المِهن اليدوية. ومن عدن هاجروا إلى مختلف بلدان العالم، كما حدثت بعض موجات الهجرة الداخلية الأخرى منذ عام 1970، من تعز إلى المناطق الأخرى داخل البلاد. وحتى اليوم، يشكِّل التعزيون "جيشاً" من المعلِّمين الجمهوريين الذين يتوجَّهون للتدريس في المناطق القبلية النائية.

في المقابل، انصرف التعزيون عن الالتحاق بالسِّلك العسكري منذ عقود عديدة، وفقدت تعز مكانتها في المنظومة السياسية القبلية التي تهيكِل إلى حدٍّ كبير التوازنات السياسية للجمهورية اليمنية. وهكذا صاحب المكانة المركزية التي تحتلها تعز في القطاع الاقتصادي وبعض القطاعات الأخرى للدولة نوعٌ من التّغييب السياسي، حتى أصبح من الصعب تحديد موقع تعز على الخريطة السياسية: فهي تعاني من ازدراء أصحاب

---

7 **انظر المرجع التالي:**

Eric Vallet, L'Arabie marchande. État et commerce sous les sultans rasulides du Yémen (626–858/1229-1454), Paris, Publications de la Sorbonne, 2010

المناطق العليا باعتبارها إقليماً غير قبلي كما هو الحال بالنسبة للجنوب سابقاً، كما أن الجنوبيين يُلحقونها بالشمال ويصِمون أهلها بالدّحابِشة8.

وفي خضم هذا المشهد الذي يغلب عليه النظرة التشطيرية إلى شمال وجنوب، تجِد تعز صعوبة في إثبات وإعلاء شأن هويتها خارج هذا الإطار الضيّق، وتسببت الوحدة اليمنية في عام 1990، في تراجع حيوية هذه المدينة بعدما كانت خليقة بتكريس دورها المركزي، ولا يتوانى التعزيون في التنديد بالمؤامرة على مدينتهم التي لرُبّما حاكَها الرئيس صالح والقبائل المتحالفة معها. ولكن هذا التصور يُغفِل الدور الأساسي الذي يقوم به التعزيون أنفسهم في هذا النظام. فتعز عَصيّةٌ على التصنيف: أينبغي إلحاقها بالجبَل أم بالسهول؟ أنعتبرها مجتمعاً قبلياً، يخضع لقواعد الانقسامات والاندماجات بحسب المظاهر التقسيمية السائدة9؟ أم إننا إزاء مجتمع هجين، أثَّرت فيه تجربة الدولة الحديثة والتراتبات الطبقية الاجتماعية؟ فتعز واقعة عند نقطة التقاء نظامين بيئيّين ثقافيّين، فهذه "القبيلة من الدّرجة الثانية" تضم في طياتها من وجهة نظر هيكلية، العديدَ من المفارقات والنَّظائر الخادِعة10.

وعادة ما تنفُذ تعز "من بين حلقات الشبكة". غير أن اليمنيين التجؤوا فجأة إلى تعز، في إطار الحركة الثورية عام 2011، فصاروا يرون فيها قَلْب الثورة، ومفتاح إسقاط نظام الحكم. لِمَ هذا الاهتمام، وكيف يمكن تأويل هذه التوترات التي تركزت على منطقة تعز؟ كيف أصبحت هذه الصورة الغامضة للبُرغلي تشكِّل تحدِّياً لشرعيّة النظام السياسية؟ بعيداً عن اختزال الأمر في صراع بين التوجه المحافظ والتغيير، فإن أصول هذا الجدَل

---

8 **راجع مقال السيد فرانك ميرمييه Franck Mermier في هذا الإصدار.**

9 **انظر المرجع التالي:**

Ernest Gellner, 1969. *Saints of the Atlas*, London: Weidenfeld & Nicolson.

ويتسم هذا التقسيم، الذي عرَّفه دورخايم Durkheim في البداية، بطريقة تصور البنية الاجتماعية كامتداد لألفاظ الوصاية، وباستقلالية تامة عن الدولة.

10 **انظر المرجع التالي:**

Gregory Bateson, 1972. A theory of play and fantasy. In *Steps to an Ecology of Mind*. Chandler Pub. Co., p. 177 193.

تتجذر في التاريخ الاجتماعي والثقافي المعقَّد الذي يغوص بنا عميقاً في خِضم الالتباسات التي تشوب اليمن في ظل الجمهورية.

و في هذا المستوى من التحليل نود الإشارة إلى أن مقالنا هذا يندرج ضمن إطار بحثي حول مقاربة للتاريخ "من الأسفل"، انطلاقا من أبحاث اثنوغرافية ميدانية حول مدينة تعز و حارة حوض الأشراف خصوصا. وتسمح لنا الظروف التاريخية الراهنة بطرح بعضٍ من أفكارنا حول تاريخ اليمن بصفة عامة.

البُرغلي، السِّمة الكاشفة لمنطق الثقافة القبلية

ماذا تعني بالضبط كلمة "برغلي" (البراغلة بصيغة الجمع)؟ يؤكد لنا أحد تجار القطع الأثرية في سوق تعز أن هذا المصطلح هو تحوير لغوي لكلمة "البرتغالي"، ويُقصد به سلاح ناري قديم مصنوع في البرتغال استخدمه التعزيون أثناء الحرب الأهلية في الستينيات (حصار السبعين يوماً). بينما يذكر عالم اللغة السيد جوليان دوفور Julien Dufour أنّ هذه الكلمة قد تتضمن محاكاةً للنطق بلهجة دارجة معينة: " إنّ "مصطلح *لُغُلغي* أو *بُرغلي* يطلِقه أحياناً أصحاب الشمال على سكان المناطق ذات اللهجة الجنوبية لا سيما في طريقة نطق بعض الحروف، مثل / ج / و / ق / [...]. فبعضهم ينطقون حرف القاف بطريقة تشبه نطق حرف الغين، ويمكن تمييزها بسهولة ".[11]

وغالباً ما يذكر اليمنيون أنفسهم هذا التفسير اللغوي، ولعلهم لا يعرفون الأصل اللغوي الدقيق لهذا المصطلح. كما ورد ذكر كلمة "بِرغيل (الجمع براغيل)" في لسان العرب، ونقرأ فيه هذا التعريف "البلاد التي بين الريف والبر"، وهو ما يوافق في الفرنسية معنى كلمة Piemonts (وتعادل كلمة foothill بالإنجليزية، وسفح الجبل بالعربية). كما يورد المعجم تعريفاً آخر لهذه الكلمة منسوباً للعالم اللغوي أبي حنيفة جاء فيه: "البِرغيل الأرض القريبة من الماء".

11 **انظر المرجع التالي**:

Julien Dufour, « Attitudes linguistiques et identités locales à San‘â’ », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n° 121-122, 2008, p. 133-144.

وفي الحقيقة، نجد إيحاءً صوتياً في هذه الكلمة يشير إلى خرير مياه السواقي والأنهار المنحدرة من الجبال، ومن المثير للعجب هذا التوافق الكبير بين هذه التعريفات والموقع الجغرافي الوسطي لمدينة تعز، التي تُشكِّل مع مدينة إبْ المجاورة أكثر الأقاليم اخضراراً في البلاد. أما ما يتعلق بالملابسات التاريخية التي صاحبت دخول هذا المصطلح في اللهجة اليمنية، فلا بد من التحقق من الفرضية المذكورة آنفاً بخصوص مشاركة أهل تعز في معركة فك حصار السبعين في الستينيات باستخدام "براغِلتهم" أي بنادقهم النارية برتغالية الصنع. وأياً كان الأمر، فإن التصاق هذا الاسم بجذره اللغوي (ب، ر، غ، ل) بأصحاب تعز، إنما يُعزى لطبيعة التركيبة النغمية للغة العربية وأوصافها الدقيقة، وهذا ما انتهت إليه قناعتنا، فوصف أهل قبائل المناطق العليا لأهل تعز بالبراغلة إنما يحمل إشارة ضمنية لمِعنى أهل المناطق السُّفلى أو "سفوح الجبل" وهكذا بدا لنا فَهمها.

وحتى داخل إقليم تعز، نجد بعض القرى في موقع "البِرغيل" مقارنة بمواقع القرى المحاذية، وهذا الحال ينطبق خصوصاً على وادي قَدَسْ بالنسبة إلى هضبة التُّربَة والصِّلْو التي تشكل حصناً طبيعياً منيعاً، فوادي قدس أكثر اخضراراً ويشكل "مِغلاقاً" طبيعياً، ومعبراً إجبارياً يُطِلُّ من جانبه الآخر على السهل الساحلي لعدن، بعد اجتياز طور الباحة، انطلاقاً من جبال الحُجريَّة. ولا شك في أن هذا الموقع الوسطي قد شكَّل هوية قدس، من ضمن مُجمَلِ القرى في إقليم تعز.

ونسوق مثالاً آخر حول قرية النَّشَمة12، الواقعة في أسفل الهضاب المرتفعة والمنيعة، على غرار قرية الجِبْزيّة، فبالنسبة لأهل القرية الأخيرة، يُعدُّ أصحاب النشمة ذوي سمعة سيئة لأنهم "أناس يسكنون بمحاذاة ممرات المياه " وقرب الطرقات العامة، لا سيما أن وادي النشمة يضمُّ سوقاً كبيراً ويُعدُّ طريقاً عاماً، ومن هنا نُدرِك جيداً الأصول الاجتماعية التأويلية لهذ الوصمة. وقد لاحظ علماء الأنثروبولوجيا الظاهرة ذاتها في مناطق أخرى من اليمن كمَناخة حيث ذكر الباحث توماس جيرهولم Tomas Gerholm [13]: "تُمثِّل الأودية، بالنسبة لسكان الجبال، هوامش حقيقية للمجتمع اليمني". من وجهة نظر علم الأنثروبولوجيا البنيوي، نجِد

---

12 مقابلة مع الباحث مصطفى الجِبزي، كما أن السمعة السيئة الملتصقة بالنشمة قد ذكرتها الباحثة ماجي جرابونديجا في دراستها المذكورة آنفاً .

13 يشير الكاتب إلى منطقة مناخَة، وللمزيد من المعلومات انظر المرجع التالي :

Tomas Gerholm, Market, Mosque and Mafraj. Social Inequality in a Yemeni Town, Stockholm, University of Stockholm, 1977, p. 32.

في هذه الظاهرة سِمةً عامة للثقافات القبلية التي يحتلُّ مفهوم الشرف فيها القيمة الأساسية الناظمة للحياة الاجتماعية.

فلندرس الآن من الداخل هذا التنظيم الرمزي للمجال الجغرافي كما نلحظه في الجبال اليمنية، والذي لا يقتصر على المقابَلة بين الجبال والسهول، بل ويقابِل بصورة منهجية بين خط القِمم وخط القعْر (خط جريان المياه في أسفل الوادي)، ويحسُن بالقرى أن تُبنى في الأعالي على قمم التلال لِتُطِلّ على بيئتها المحيطة، وتزداد المنازل الواقعة في القمم العالية البارزة قيمة وشأناً، وهذه ميزة بنيوية للجغرافيا البشرية الخاصة بالجبال اليمنية، فضلاً عن كونها عامل جذبٍ يستهوي السياح. وعلى العكس من ذلك، يُعمَد للتّقليل من شأن مناطق السكنى القريبة من ممرات المياه.

فيؤكد البعض بأن الهواء فيها ملوث والأمراض منتشرة بحكم قربها من مجاري المياه، ويرجع هذا التوجس في الواقع إلى طريقة سير الحياة التقليدية للمجتمع الجبلي، وإلى كيفية انخراط الأراضي المحلية التابعة لكل أسرة وعشيرة في المجال الطبيعي. فتفضيل المنازل العالية والمنيعة ناجم عن هاجس مُبتَذل في تأمين الحماية من الغارات الحربية، فضلاً عن اعتبارات مرتبطة بالشّرف العائلي وحماية النساء. فإذا بني المنزل على مقربة من النهر حيث تأتي القرية بأكملها لاستجلاب الماء، أو باعتباره معبَراً للمواصلات، فإنّ شرَف العائلة قد يكون أكثر عرضة للخطر. بالمقابل، فإن المنزل المنيع القائم على ربْوة مُشْرِفة يُعدُّ في الغالِب ميزة هامة في هذه المنظومة الاجتماعية[14] .

وبالتالي يُشتبه أحياناً في الذين آثروا السكن قرب ممرات المياه بأن لهم مآرِبَ أخرى غير الاهتمام بمسألة الشرف. وكما هو الحال بالنسبة لبعض الحِرَف الوضيعة في منظور المجتمع القبلي (التجار والحرفيين والعمال اليوميين)، فقد يُشتبه كذلك في تفضيل هؤلاء الأشخاص تعمّد التواصل مع الأجنبي على الامتثال لمكانتهم في البنية الاجتماعية المحلية. وانطلاقاً من المبادئ البنيوية والسلوكية لماهِية الشّرف، يصبح المضمون الحقيقي للازدراء الكامِن في كلمة "البُرغلي" أكثر وضوحاً وانسجاماً مع مختلف التعريفات المقترحة سابقاً.

---

14 **انظر المرجع التالي** :

Pierre Bourdieu, « Le sens de l’honneur », in Esquisse d’une théorie de la pratique ; précédé de trois études d’ethnologie kabyle, Paris, Seuil, 2000, p. 19-60.

فعلى سبيل المثال، ليس من المستغرب أن نجد ثمة تقارباً لغوياً بين كلمة *برغلي* وكلمة *لغلغي*، مما قد يثير الدهشة: فـ"ثرثرة" البُرغلي تتعارَض مع الرصانة اللغوية للرجل النبيل ذي الوجاهة، فيُظنُّ بالبُرغلي مسارعته في إقامة العلاقات بسهولة. ونرى أن كافة الجوانب المتعلقة بهذه الوصمة مُستمدَّة من نفس المنطِق الأساسي للثقافة القبلية الداخلية: فالاختلاط، كالجنس، يُعدُّ خطراً محتملاً على النظام الاجتماعي.

وبناءً على هذا، فمن الأجدر فَهمُ معنى كلمة "برغلي" بطريقة علائقية ارتباطية: فهي لا تصِف طبعاً متأصِّلاً وإنما وضعاً معيّناً داخل تركيبة خاصة، ولهذا يمكن قلبُ هذه العلاقة الارتباطية، فالشرف بحد ذاته مفهوم علائقي وعلى هذا المنوال تندرج كافة مفردات السياسة القبلية العلائقية أيضاً. ويطلق علماء الإنثروبولوجيا على هذه الخاصية اسم "التقسيمية" [segmentarity]، وإذا ما "دبّت الحياة" فجأة في هذه الروح اليمنية، فذلك لأنهم أدركوا بطريقة ما هذه الحقيقة الإنثروبولوجية.

هذه القراءة البنيوية تُلقي الضوء على فصول أخرى مرَّ بها الحراك الثوري في ربيع 2011: ففي خطاب ألقاه الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في 15 أبريل، أمام جمع غفير من أنصاره، حث الرئيس المعارضة على وقْف الاخْتلاط في ساحة التغيير. وبدهاء، استدعى الرئيس الحُجج الشرعية التي تنظِّم العلاقات بين الجنسين، ولكن غرضه الرئيسي يبقى سياسياً بامتياز: إذ اتهم بشكلٍ مبطَّن أحزاب المعارضة بتواطئها في التَّسبُب بهذا النوع من "الانحطاط". فمن خلال التعريض بكرامة النساء، سعى الرئيس إلى تفعيل دور هذه الوصمة، دون الحاجة لاستخدام المصطلح ذاته، فقد اعتبر ضِمناً أن هذه الاحتجاجات ليست إلا "حركة براغلة" تفتِقر للمصداقية السياسية. ولكن في هذه المرة، كان في صفوف المحتّجّين أناسٌ من صعدة ومن المناطق القبلية النائية. أما ردود النساء الغاضبة فقد قامت القنوات الفضائية بتدوينها وبثِّها، فأصبح غضبهن شعاراً لكرامة الحراك الثوري في مُجمله. وتشكّلت آلية مماثلة حول توكل كرمان، تلك المرأة الرزينة المنحدرة من تعز وقد مُنِحت جائزة نوبل للسلام في أكتوبر 2011، وأسهمت في هذا الحراك من خلال مواقف شديدة الوضوح والحزم إزاء النظام الحاكم.

في كافة مشاهد هذه الثورة، نجد انقلاباً للوصمة المرتبطة بهذه المكانة الوسطية بين طرفين، مما حفَّز إعادة رسم مشهد الشَّرف. وهنا تكمُن المفارقة المرتبطة بأهل السفوح أو فلنقُل أهل البراغيل: فعلى الرغم من ازدرائهم، إلا أنهم يظلون مُنتسِبين للعالَم القبلي، وغالباً ما يأتي التغيير عن طريقهم[15] . وعلى هذا النحو، فهم جزءٌ لا يتجزأ من النظام: فوجود أهل البراغيل ضرورة لتجديد التركيبة القبلية الهرمية وبالتالي بقاؤها. ولكن هذه الحقيقة البارعة غالباً ما يُسدَل السِّتار عليها من خلال تصوُّر بُنيَة قبَلية مِثاليّة تَستبعِد الشائبة الكائنة في البُرغلي. وقد تجذرت طريقة التفكير الاندماجية الثقافية هذه [culturalism] وتصور الهوية القائم على مفهوم الشَّرف، في يَمن علي عبد الله صالح، وتَظهرُ في المقَام الأول حول تعز من خلال استبعادها من فكرة *أن تكون فعلاً* منطقة قبلية.

تعز، ثقافة قبلية ضمنية

في يمن الألفية الثالثة، تُعدُّ تعز رمزاً للاستثناء من المجتمع القبلي، ويقِرُّ التعزيون أنفسهم بهذا الفرق إذ يحبذون اعتبارهم مجتمعاً متمدناً بعمقٍ بفضل التعليم الحديث، سواء تعلق الأمر بالعلاقات بين الرجال والنساء أو بنفوذ المشايخ في الأرياف أو التعامل مع قضايا الشتيمة الشرفية، فيتم التركيز دائماً على الابتعاد عن العادات الثقافية القبلية. ومع ذلك، فإن هذه الملاحظة الميدانية تخضع للنسبية إذا ما عرضناها على الممارسات الفعلية، التي كثيراً ما تَصدُر عن ذات المنطق التراكبي التقسيمي16.

---

15 **وندين بالفضل في هذه الرؤية البحثية للباحثة جوسلين دخليّة Jocelyne Dakhlia حول "المابَيْنِيّة"، وللمزيد للمعلومات انظر المرجع التالي :**

Lingua franca. Histoire d'une langue métisse en Méditerranée, Arles, Actes Sud, 2008.

16 **إن التركيز هنا على القواعد المنطقية للفعل يُعدُّ أمراً ضرورياً للتفكير حول التقسيمية في الإطار الحضري، غير أن هذا قد يؤدي إلى استخدام واسع لمصطلح "القبْيَلة"، فالقصد هنا ليس تصميم منظومة جديدة وإنما إعمال الفِكر بحيث نحرك الخطوط التي تبدو جامدة لا تتزحزح بسبب الرهانات السياسية. وقد درست جان فافريه سادا Jeanne Favret-Saada في أبحاثها الأولى عن الجزائر، من خلال هذه الرؤية، أطروحات جيلنر Gellner حول التقسيمية، ولاحظت "إعادة تفعيل للأنماط المتذبذبة للثقافة المعادية للاستعمار". ولمزيد من المعلومات، يرجى الاطلاع على المرجع التالي:**

« Le traditionalisme par excès de modernité (1967) » in Algérie 1962-1964. Essais d'anthropologie politique, Saint-Denis, Bouchène, 2003, p. 33-62.

فمثلاً، من وجهة النظر الرسمية، ليس للعدالة القبلية صفة تُذكر، وإنما تختص المحكمة بالفصل في النزاعات. غير أن المحاكم تعاني من الفساد وطول الإجراءات المكلِّفة: كما هو الحال في أماكن أخرى من اليمن، فقد ترى الأطراف المتخاصمة أن من صالحها الاتفاق على تفعيل إجراءات الوساطة قبْل اللجوء إلى المحاكم الحكومية. لكنه نادراً ما يربط هؤلاء الأطراف بشكل واضح هذه الإجراءات بالعرف القبلي. والأمر نفسه ينطبِق على المستوى السياسي، إذ يُعتبر "تعسُّف الشيخ" مرادفاً للتخلّف، ومن الشائع أن يسخر الناس من سكان المناطق المحيطة، التي لم تنعَتِق بعدُ من سيطرة المشايخ (لا سيما في شرعب وماوية وكذلك العُديْن). ومع ذلك فإن التعزيين قد يلجئون عند إدارة شئونهم الخاصة إلى بعض الأشخاص من أصحاب النفوذ، ويخاطبونهم باحترام وتبجيل "دكتور"، "مهندس"، "أستاذ"، بينما يستخدم البعض لقب "الشيخ" في أماكن أخرى. ويظهر أنه من غير اللائق، في تعز، أن تلجأ إلى شخصٍ من خلال الثَّناء على حسَبه ونَسبه، وإنما يُحبَّذ مدحه باستخدام ألقاب تُشيد بـ"علمه"، لكن النتيجة واحدة في كلتا الحالتين. في الواقع، نجد أن القبلية فقدت غطاء الشرعية على المستوى الأيدولوجي. وقد لاحظ ذلك الباحث ماجي جرابونزيجا Maggy Grabundzija في مستهلِّ الألفية الثالثة في مقدار، إحدى قرى الحجرية بتعز. "تتعايش اليوم قبائل مختلفة في هذه القرية: قصيه، شريف، حداد، الفقيه. لكن القرويين لا يعرِّفون بأنفسهم من خلال انتمائهم القبلي. وعندما نسأل أحدهم عن القبيلة التي ينتمي إليها، نجده غالباً ما يتردد برهة قبل الإجابة بقوله إنه لا ينتمي إلى أي واحدة منها، ولا يصرّح باسم قبيلته إلا بعد مزيد إلحاح عليه".17

في مناطق المرتفعات الجبلية، ترجِع كل الأنساب القبلية بصورة أسطورية إلى سلالة مشتركة وهي بنو قحطان، وتدَّعي ثُلَّة قليلة من التعزيين الانتساب إلى هذه السلالة المجيدة، لما في هذا من تناقضٍ صارخٍ مع مبدأ المساواة الجمهوري. في المدينة، قد نسمعهم يقولون، على سبيل المثال: "أنا أنتمي إلى قبيلة مقدار"، نسبة إلى قريته الأصلية. وثمة روابط قربى معروفة بين هذه القرى والقبائل في مناطق المرتفعات الجبلية، ولكن

---

17 **انظر المرجع التالي:**

ماجي جرابونزيجه، الأماكن، الأدوار الذكورية والأنثوية، والتصورات النوعية الجندرية في إحدى قرى الحجرية، دراسة إنثروبولوجية للتحولات الحديثة في اليمن، رسالة دكتوراه في علم الإنثروبولوجيا، باريس، المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية ،EHESS، 2009 ص. 149–150.

استدعاءها واستعراضَها يُعدُّ بحد ذاته لفتةً سياسية، يُنظَر إليها على أنها علامة على الولاء للنظام في صنعاء18.

ومع ذلك، نجد المبادئ القبلية تطفو على السطح بشكل غير مباشر في الحياة اليومية، عن طريق آليات التمييز المذكورة أعلاه. في المناطق الريفية في تعز، نرى القدر نفسه من الازدراء التقليدي "للسكان القريبين من ممرات المياه". فمثلاً نجد في الحجرية أن وادي قَدَس يُزدرَى من قِبل هضبة الصلو التي تعلوه، وكذلك الحال بالنسبة لوادي النشمة19 من قِبل وادي الجبزية. وفي الوسط الحضري، نجد هذا النوع من التمييز القبلي يحتل مكانة مركزية في ممارسات إدارة الشؤون العامة التي تحافظ على النظام الاجتماعي.

ويندرج مبدأ إقصاء العمال اليوميين في شوارع معينة في إطار احترام المساحات الحضرية المحلية20. ويمكن تفسير هذه الممارسات، وفقاً لرأي بول دريش Paul Dresch من باب "الاعتقاد بأن هؤلاء الناس الذين لا روابط لهم بالمدينة، ولا مكان محدَّد لهم في النظام القبلي قد يتسببون في إحداث المشاكل"21. وبالتالي فإن منطقة تعز لا تزال غارقةً في الثقافة القبلية.

إن ملاحظاتنا حول المجتمع التعزي تنطوي عنوة في إطار معاكسٍ للقراءة العادية التي تميِّز بين اليمن السفلي ويَمن المناطق العليا، بين الأقاليم الشافعية والأقاليم الزيدية، ونشير تحديداً إلى وجود فارقٍ جوهريّ في درجة

---

18 **انظر على سبيل المثال الطريقة التي اتبعها الدكتور قايد محمد طربوش، "من أنساب عشائر محافظة تعز، الوحدة اليمنية في البنية السكانية لأبناء محافظة تعز"، عدن، دار الجامعة، عدن للطباعة والنشر، 2005 .**

19 **وقد ذكر الباحث ماجي جرابونزيجه، السمعة السيئة للنَّشَمة في اطروحته: "الأماكن، الأدوار الذكورية والأنثوية، والتصورات النوعية الجندرية في إحدى قرى الحجرية، دراسة أنثروبولوجية للتحولات الحديثة في اليمن"، المرجع المذكور آنفاً، ص 126.**

20 **لمزيد من المعلومات يرجى الاطلاع على المرجع التالي: فانسون بلانيل " Vincent Planel العمال اليدويون في الفضاء المدني، الخصوصيات المناطقية والنظام الاجتماعي في تعز:"**

Vincent Planel, « Les hommes de peine dans l’espace urbain. Spécialisations régionales et ordre social à Taez », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n° 121-122, 2008, p. 147-163.

وحول هذه الإشكالية في صنعاء، يمكن مراجعة أبحاث فرانك ميرمييه" Franck Mermier شيخ الليل، صنعاء، تنظيم الأسواق والمجتمع المدني:"

Franck Mermier, Le cheikh de la nuit. Sana’a, organisation des souks et société citadine, Paris, Actes Sud, 1997.

21 **انظر المرجع التالي: بول ديرش "القبلية والديمقراطية في اليمن "**

Paul Dresch, « Tribalisme et démocratie au Yémen », Chroniques yéménites, n° 4, 1994, p. 23

القَبْيَلة. إننا نرى على العكس من ذلك في اليمن السفلي، فالتعريف بالذات نسبة إلى المرجع القبلي من عَدَمِه يعتمِد على التركيبة السياسية التي تتغير بحسب كل حالة. إذ نجد في القرن الثاني عشر، نصوصاً من أيام حكم الدولة الرسولية تشيد بحفاوة وليونة سكان اليمن السفلي، ووفرة الزراعة فيها، مقارنة برعونة القبائل الشرسة في الشمال22.

إن بقاء هذه الأماكن المشتركة بحسب هذه الرؤية لا يعني بالضرورة صحة هذا الاستنتاج، بل تدُلُّ ببساطة على تكرُّر التركيبة ذاتها التي عادة ما ظهرت في اليمن السفلي، والتي تظهر اليوم بالدرجة نفسها في المناطق العليا المفتوحة أمام الهجرة والتمدُّن23. وبالتالي فإن اعتماد هذه الرؤية للأماكن الشائعة، في عملية البحث والتقصي الإثنولوجي، قد يتسبب في التعْمِية على الرهانات السياسية الفعلية. ولنأخذ على سبيل المثال كيف تناول روبرت ستوكي Robert Stookey قضية اليمن السفلي، في مقالة هامة صدرت عام 241974. فقد ذكر المؤلف في معرِض تفسير بعض الأحداث المعاصرة آنذاك أنّ الهياكل الاجتماعية في اليمن السفلي فقدت خصائصها القبلية عند خوضها تجربة الحُكم إبّان الدولة الأيوبية والرسولية (1174–1454). "فكلما تم إضعاف الدور القديم المتجذِّر لمشايخ الجنوب لأجل الحفاظ على التلاحم الاجتماعي [من قِبل الدولة الرسولية]، توجَّهت القوة القسرية التي يمارسونها على جيرانهم نحو تحقيق المصالح الأنانية بدلاً من الجماعية"25.

---

22 **انظر المرجع التالي: إيريك فاليه " العربية التجارية، الدولة والتجارة في حقبة سلاطين الدولة الرسولية في اليمن:"**

Éric Vallet, L'Arabie marchande. État et commerce sous les sultans rasulides du Yémen (626– 858/1229-1454), op. cit., p. 19.

23 **يمكن تعريف التمدُّن بأنه عملية تاريخية لتنظيم تقسيم أدوار العمل بين الناس، من خلال الاستناد إلى مؤسسات خاصة. وللاطلاع على مقاربة ديناميكية تحكمية لمفهوم التمدن، يمكن مراجعة كتاب جون فرانسوا ليوتارد "أحوال ما بعد الحداثة:"**

Jean-François Lyotard, La condition post-moderne, Paris, Éditions de Minuit, 1979.

24 **انظر المرجع التالي:**

Robert Stookey, « Social Structure and Politics in the Yemen Arab Republic », Middle East Journal, n° 28/3, 1974, p. 248-260.

25 **المرجع المذكور أعلاه، ص. 253**

من المدهش معرفة مدى التأثير العام لهذه الآلية التي ذكرها المؤلف بخصوص الفترة الرسولية ولكنها تذكرنا كثيراً بالقرن العشرين: ففي أرياف تعز، حدث اضطراب لدى السلطات المحلية في البداية بسبب الانتشار الفجائي لظاهرة هجرة العمَّال إلى عدن، المرتبطة بالطفرة الاقتصادية التي حدثت أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يتخذ هذا الصراع منحىً أيديولوجياً إلا في فترة لاحقة. ويكتب المؤلف هذا التحليل في أوائل السبعينيات في سياقٍ مختلفٍ إذ كان شيوخ منطقة تعز يتعّرضون حينها لمعارضة شديدة من قِبل العصابات والجَبهات، المموّلة من الجنوب الاشتراكي. وردّ النظام الشمالي على ذلك بتدعيم الارتكاز على المشايخ، مما أدى إلى اسْتعار الاحتجاجات26. ويصف روبرت ستوكي بدقة متناهية هذا التفاعل التسلسلي (وهو ما نسميه في علم الأنثروبولوجيا "الفُصَام التكويني"[schismogenesis]27. لِمَ العودة إلى أيام الدولة الرسولية؟ لِمَ الاحتجاج بخصوصية ثقافية يعود أصلها إلى فترة تاريخية ضاربة في القدم، على الرغم من أن الأحداث المعاصرة تنضوي في إطار التركيبة التاريخية ذاتها (التي نشير إليها هنا من خلال استخدام مفهوم "أهل السفوح")؟

سواءٌ تعلق الأمر بالهجمة الأيوبية– التي نتجت عنها التجربة الرسولية– أم بالإمبريالية العثمانية أو الإنجليزية أو المصرية، فقد خضعت الجبال اليمنية بصورة منتظمة لتأثير، بعيد المدى إلى حدٍ ما، للدول القوية، وإن كانت بالفعل هذه التجارب أكثر شيوعاً في اليمن السفلي منها في المناطق النائية في المرتفعات، فهل يكفي هذا للاعتقاد بأن اليمن السفلي قد اكتسب بطريقة جوهرية "خصائص المجتمع القروي"؟28

---

26 **المرجع المذكور أعلاه، ص. 257**

27 **هذا "الفصام التكويني" التناظري أو التكميلي (كما هو الحال هنا)، هو عبارة عن سلسلة تراكمية من التفاعلات البينية التي تؤدي إلى تشكيل كيانين متضادين. لمزيد من الاطلاع، انظر المرجع التالي:**

Gregory Bateson, 1936. *Naven: A survey of the problems suggested by a composite picture of the culture of a New Guinea tribe drawn from three points of view*, Stanford University Press.

28 **انظر المرجع التالي:**

Robert Stookey, « Social Structure and Politics in the Yemen Arab Republic », op. cit., p. 252.

وما دامت تعز في طليعة الاحتجاج الديمقراطي، فلسنا في حاجة للمُماحكة حول التفاصيل، لكن هذه الأسئلة المعرِفية29 تكتسب أهمية كبرى في خِضم هذه العملية الثورية التي صار يُسمع فيها صوت المطالب الديمقراطية للمناطق العليا أيضاً، فهل تكريس تعز منهجياً بصفتها رمز التمدن يعني إلصاق صفة التخلُّف والرجعية بالمناطق العليا؟ فطوال فترة حكم علي عبد الله صالح كانت موجات الاحتجاجات التقدُّمية الصاعِدة من "الجنوب الُمتحضِّر" تتحطَّم على "الصخرة القَبلية"، وحتى عام 2011 كان رئيس الدولة يخرج أشدّ قوّة في كل مرة من مثل هذه الاحتجاجات وذلك لأن سلطته تستند تحديداً على هذا الانقسام أو على طريقة معينة للتكيّف معه.

جمهورية البراغلة

كيف وجد إقليم تعز نفسه مصنفاً بنيوياً في هذا الوضع الاستثنائي، بصِفة البراغلة؟ فدونما اختزال للموضوع في مجرد العداء الثقافي المتجذر بين اليمن السفلي والمناطق العليا، نجده بالأحرى نتيجةً للصيغة السياسية التي فرضت نفسها في اليمن الشمالي الجمهوري، خلال سنوات القلاقل التي أعقبت وصول علي عبد الله صالح إلى السلطة (1978). وكان استبعاد التعزيين من الجيش حَجر الزاوية في هذا النَّهج السياسي.

بدأت بواكير هذا التطور في السنوات التي تلت الانسحاب المصري (1967)، وللمفارقة فإن الجيش الجمهوري قد تمكن عندئذ من هزيمة الملكيين من خلال تدفق المتطوعين من تعز والمناطق الشافعية، لكن ثمة مفاوضات مع القوى الملكية دارت في الكواليس وكان للتحالفات القبلية دور حاسم فيها. وأدت الصراعات

---

29 **إن التقسيم الذي شرعنا فيه هنا بين "الدَّرجة" و "التركيبة" يرجع أصله إلى التمييز بين الأشكال التماثُلية والرقمية لتشفير المعلومات. ولمزيد من الاطلاع حول هذه النقطة المعرفية الأساسية يمكن مراجعة كتاب جريجوري بيتسون:**

Gregory Bateson, 1979. *Mind and nature: A necessary unity*, New York: E. P. Dutton., pp. 49-53

ونقصد بملاحظاتنا حول القبيلة في تعز النزعة الملحوظة لدى العلوم الاجتماعية لتعديد "العوامل التفسيرية" (كما لو أنها عمليات تماثلية مشابهة) على حساب تقديم وصف دقيق للعمليات الداخلة في إعادة إنتاج النظام الأنثروبولوجي، الأجدر باعتقادهم على توضيح الطبيعة المنهجية لهذه العمليات (الرقمية).

المعقدة على السلطة داخل الجيش الجمهوري إلى سحْق الفريق الأكثر عقائدية فيه، وهي قوات المقاومة الشعبية (الماركسية والقومية العربية)، وكان من ضمنها عدد كبير من التعزيين.

اغتيل قائد القوات الخاصة عبد الرقيب، بطلُ تلك المرحلة في عام 301969، وفي السبعينيات تمت الإطاحة بكبار ضباط الجيش من تعز، بينما واجه الضباط من أصحاب الرتب العسكرية الدنيا من منطقة تعز عقبات منهجية في الترقيات31، ولم يتمكن الخيار الحداثي المتمثل بارتقاء الرئيس إبراهيم الحمدي (1974–1977) سدَّة الحكم في تغيير هذا الوضع، فلم يلتحق التعزيون بعدُ في السلك العسكري واكتفوا بالعمل في القطاعات الإدارية الصغيرة وفي التعليم.

في موازاة ذلك، قاموا بتطوير قطاع التجارة والصناعة، ولكن من دون تشكيل برجوازية مستقلَّة قادرة على الدفاع عن مصالحها الطبقية. وظلّ النشاط التجاري في السبعينيات موصوماً بالسوء، فلطالما نسب الارتفاع المستمر لمعدلات التضخم إلى التجار وارْتيب في إثرائهم الفاحش على عاتق الشعب32. وحتى في التسعينيات، كان التجار التعزيون في سوق المدينة القديمة في صنعاء يُتّهمون بالمنافسة غير المشروعة، ويُعَدُّون رمزاً للحداثة المدمِّرة تماماً كما هو الحال بالنسبة لظهور القبائل في المدينة33.

وهكذا نجد أن التعزيين قد التصقت بهم تدريجياً وصمة البرغلي، ورجل التجارة المشبوهة، قليل الشرف واللاهِث وراء المكاسب. في نهاية المطاف، نجد أن الحدود "العِرقية"34 تقريباً، الفاصِلة بين تعز والمرتفعات، تنبُع من الفارق الزمني في الانفتاح على تجربة الهجرة. ففي الخمسينيات، كانت جبال تعز تمثل القاعدة

---

30 **حول هذه الحقبة، انظر المرجع التالي:**

Paul Dresch, A History of Modern Yemen, Cambridge, Cambridge University Press, 2000, p. 114-117.

31 **انظر المرجع التالي:**

Robert Stookey, « Social Structure and Politics in the Yemen Arab Republic », op. cit., p. 25

32 **المرجع المذكور أعلاه، ص. 259–260**

33 **انظر المرجع التالي:**

Franck Mermier, « Sanaa, métaphore de l'État yéménite » in Gilbert Grandguillaume, Franck Mermier et Jean-François Troin (dir.), Sanaa hors les murs. Une ville arabe contemporaine, Sanaa-Tours, CFEY-URBAMA, 1995, p. 37-70.

وابتداءً من التسعينات، انتهز كثير من المشايخ ورجال القبائل الفرص الاقتصادية التي وفرها قطاع التجارة.

34 **انظر المرجع التالي:**

Fredrik Barth, 1969. *Ethnic groups and boundaries. The social organization of culture difference*, Boston: Little Brown.

الخلفية المباشرة لأحد الموانئ العالمية، وعشية ثورة 1962 في الشمال، كانت عدن تضم حوالي 200,000 نسمة، منهم حوالي 80,000 عامل وافد من الجبال (كان التعداد الكلي للسكان في صنعاء في الفترة نفسها فقط 50,000 نسمة)35.

فانطلاقاً من عدن هاجر التعزيون إلى جميع أنحاء العالم36، ومَرّوا بتجربة الطبقة العمّالية المدنية والتعليم الحديث والأيديولوجيات الثورية. أما في بقية أجزاء اليمن القبلية، فلم تنتشر ظاهرة الهجرة على نطاق واسع إلا عقب الصدمة النفطية عام 1973. ولكن هذا الفارق الزمني لم يكُن ليؤدي إلى أي نتيجة لولا تدخل الإمبريالية المصرية آنذاك، فأقحمت اليمن الشمالي في ثورة لم يكن على أتم الاستعداد لخوضها.

كما أوضح فرانسوا بورجا Francois Burgat، فإن شهادات الفاعلين السياسين في تلك الفترة37 تظهر اختلالات بنيوية في العملية الثورية وعواقبَ انعكست على الطبيعة الناقصة لعملية التحديث السياسي: "فمن خلال الدعم القوي لثورة عام 1962، أعطى الرئيس ناصر للجمهورية اليمنية الناشئة وسائل النصر العسكري "من الأعلى"، ولكن استبداله وكلاءه بالقادة التاريخيين لحركة التحديث، قد ألقى بِثِقله على الطبيعة الذاتية المصدر لديناميكية الحداثة، وربما حَرمها بالتالي، من جزءٍ من مواردها الخاصة".38 في الأساس، أصبح التعزيون رهائن للجمهورية التي يجب إضفاء الشرعية عليها على المستوى الإيديولوجي، والتي اقتصرت ابتكاراتها فقط على مجالات التعليم والنشاط الاقتصادي. وفضلاً عن الإذلال العميق الذي شكَّله تطهير الجيش الجمهوري من أهل تعز، فقد نتجت عنه عواقب وخيمة لكونه رسَّخ في قلبِ النظام

---

35 **انظر المرجع التالي:**

Paul Dresch, A History of Modern Yemen, op. cit., p. 86.

36 **انظر المرجع التالي:**

Fred Halliday, Arabs in Exile. Yemeni Migrants in Urban Britain, Londres-New York, I.B.Tauris, 1992.

37 **أحمد محمد نعمان (1909–1996)، وأصله من الحجرية، وقد أسس في 1930 مدرسة بمساعدة مدرسين تم تأهيلهم في عدن، ويعتبر الشريك المؤسس لحركة اليمنيين الأحرار مع محمد محمود الزبيري. لمزيد من الاطلاع، انظر المرجع التالي:**

François Burgat, « Ahmad Muhammad Nu‘mân et la construction d’une identité nationale yéménite », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n° 121-122, 2007, p. 185-200.

38 **المرجع المذكور آنفاً، ص. 183**

لمبدأ عدم التوافق الأساسي بين الحداثة ومتطلبات الشرف القبلي39. فمن خلال سعي الجمهورية لتوطيد استقرارها في آن واحد على هاتين القاعدتين، أسهمت، ويا للمفارقة، في بقائهما منفصلين. وزاد هذا التناقض سوءاً في العقود التالية بعدما انفتحت الجبال اليمنية على العالم، وتعمَّمت فيها الأنشطة التجارية على نطاق واسع. وفي هذا السياق، نكَّس أصحاب تعز رايات كبريائهم الإقليمي، رغبةً منهم في الحفاظ على كرامتهم وتطلُّعاً لأيامٍ أفضل.

التنكر لحقيقة الانتماءات العرقية

ذكر جوليان دوفور في معرض دراسته اللغوية الشاملة للهجات المحلية في العاصمة عام 2000:

"على سبيل المثال، نجد المثقَّف النّمطي في الجنوب حاسِر الرأس، يرتدي قميصاً وسروالاً، ومتقارباً مع الأفكار الاشتراكية. ولكن هل هو من تعز؟ من "عدن؟ من الصعب تحديد ذلك بسرعة، وذلك لأنه يتكلم اللغة العربية الكلاسيكية إلى حد ما، غير المتأثرة تماماً باللهجة الدارجة، ومتقاربه مع نمط اللغة المستخدمة في الصحافة العالمية، ولعل بعض ملامحها تكون مستمدَّة من اللهجة المصرية".40

ولا غرابة في أن بوتقة عدن قد أنتجت تميزاً لغوياً يتماشى مع الأسلوب اللغوي الدولي، إنما المثير للدهشة أن يأتي ذلك من منطقة ريفية معينة، لا سيما في السياق اليمني. فاللغة المحايدة للنُّخب التعزية تتباين بوضوح عن اللغة المستخدمة في قِمة الدولة: يتحدث الرئيس صالح بلهجة منطقته الأصلية، سنحان، وحذا كبار المسؤولين في النظام حذوه باستخدامهم اللهجة القبلية التي تتخلّلها بشكل محسوبٍ بعض اللكنات الخاصة بمواطنهم الأصلية. وهكذا الحال في مدينة صنعاء القديمة: "وهناك شخصية بارزة أخرى: الأديب الصنعاني واسِع الثقافة والاطلاع، يلبس قميصاً وأحياناً صدرية بلا أكمام من تحت السترة على الطريقة القديمة وله تصفيفة شعر تقليدية. نجده يتقن اللغة العربية الفصحى، بطبيعة الحال، [...] لكنه لا يرى ضرورة

---

39 **وتشبه الحالة اليمنية عدة أوضاع لتغيرات اجتماعية متسارعة. لمزيد من الاطلاع، انظر المرجع التالي:**

John Comaroff & Jean Comaroff. 1987, The madman and the migrant, *op. cit.*

40 **انظر المرجع التالي: جوليان دوفور "الأوضاع اللغوية والهويات المحلية في صنعاء"**

Julien Dufour, « Attitudes linguistiques et identités locales à San‘â’ », op. cit., p. 140.

لاستخدامها في الحوارات الشفوية، ويسمح لنفسه في أغلب الأحيان باستخدام اللهجة الصنعانية، بأسلوب رصين، بينما قد يرى الآخرون أن التحدث بلغة كلاسيكية جداً تزيد في شرفهم، كما لو أن نُبل هذه اللهجة صارت مؤكدة بحيث يمكن استخدامها في المؤتمرات أو في المناقشات العلمية "41.

وسواءٌ تعلق الأمر بالنخبة القبلية أو بالنخبة القديمة الصنعانية، فإننا نلحظ بروز شكل من أشكال الانتماء المحلي باعتباره مرادفاً للكرامة. يعتمد التعزيون فقط اللهجة المحايدة كاستراتيجيةٍ للتميُّز اللغوي – اللهجة "المتأنِّثة" للبُرغلي التي تحاول محو أي إشارة تدل على المصدر المحلي.42 فهوية تعز المميَّزة لها هي اللاّهوية.

ويدل على ذلك أيضاً عدم تفرد تعز بأسلوب لباسٍ معين، فلكلٍّ من الأقاليم الرئيسية الأخرى نمطها الخاص، سواء الجنابي في المناطق المرتفعة، أو الأشكال المختلفة من المآزر: كالفوطة التهامية (المِخيطة بشكل مستديرٍ حول نفسها)، أو المعوز اللحجي (المخيط والمزيَّن بزخارف هندسية) أو المعوز الحضرمي (كثيف التطريز) أو المهري (ذي الألوان الزاهية). هذه الملابس "التقليدية" تتغير مع الموضات، وفقاً لأنماط الاستهلاك الحديثة. ولكن ارتداء المعوَز في تعز لم يجعله سمةً مناطقية أو فولكلورية لها، فلا تمتاز عن غيرها إلا بنسبَتِها الدائمة للحداثة. ففي الستينيات، كانت تعز المنطقة الأولى التي خرج فيها الرجال يرتدون السراويل، مع العلم أنه في أماكن أخرى من الجبال القبلية، لا يزال ارتداء السروال أمراً شائناً، ويسخر التعزيون من هذه العادات المتخلِّفة. فجلبت مدينة تعز الخياطين ذائعي الصيت، ومنها تنطلق التصاميم والأزياء، غير أن النشاط الاقتصادي قد انتقل إلى صنعاء في الثمانينيات والتسعينيات، فذهب الخياطون الصغار للعمل في العاصمة حيث دخلوا في منافسة مع الملابس المستوردة من الصين.

أما اليوم فقد اعتمد الصنعانيون أيضاً اللباس الأوروبي، ولكن بمجرد الانتهاء من دوام العمل، يعودون إلى منازلهم لتغيير ملابسهم ويرتدون أثوابهم والجنابي. وإذا ما ارتدوا لباس المدرِّس أو رجل الأعمال، فإنهم يحرصون على لبس الأحذية الملمَّعة جيداً. وصاروا يسخرون بدورِهم من أصحاب تعز الذين يرتدون السراويل

---

41 **انظر المرجع السابق، ص. 140**

42 **حول هذا التناقض بين نخبة السَّادة والتعزيين، يمكن مراجعة أبحاث جابرييل فوم بروك:**

Gabriele vom Bruck, « Kinship and the embodiment of history », History and Anthropology, vol. 10, n° 4, 1998, p. 263-298.

الناعمة مع الصنادل: "هذا لبس تعزِّي! ". ويشكل التعزيون أكبر تجمع للمهاجرين في العاصمة43. وحتى بداية الألفية الثالثة، لم يندمج التعزيون مع الصنعانيين في إطار هذه المدينة البوتقة، فيختلط الشباب في الجامعة فقط، ونادراً ما يلتقون في خارجها. كما أن النِّكات ليست متشابهة: فلإذابة الحواجز عند التعارف غالباً ما يتبادل التعزيون النكات الفجَّة التي تنفِّر عنهم الشباب المنحدرين من المناطق القبلية.

ولا يزال يجري تداول نكتة معبرة عن ذلك في الأوساط الصنعانية: "تحت كل حَجرةٍ تقلِبها في صنعاء ستجِد عشرات التعزيين يتحرَّكون...". وبطريقة ما نلحظ أنه بالنسبة للتعزيين، فإن ثورة 1962 لم تحدثْ بعد: فلا يزالون يهاجرون اليوم إلى الداخل في اليمن من أجل تطوير بعض الأعمال التجارية الصغيرة، كما كانوا يهاجرون قديماً نحو شرق إفريقيا، وكما كانوا يستغلُّون قديماً الهجرة ليكتسِبوا أدوات التعليم الحديث: من حضرموت إلى صعدة، ثمة فتىً مراهق يقرأ في الركن الخلفي للمتجر. ونظراً لأن منطقة تعز تخرِّج فائضاً من المعلمين، فإن الشباب يتركونها منذ نهاية المدرسة الثانوية ليتجهوا إلى أماكن أخرى في الجمهورية: إلى ذمار، صنعاء، مأرب، الجوف، حيث يمكن لأحد الأقربين التجار أن يستقبلهم فيها. في عام 2010، بلغت نسبة المعلِّمين القادمين من تعز في المناطق الشمالية النائية من البلاد حوالي 90% وفقاً لمسؤولين من مكتب التربية والتعليم. فالاستثمار في مجال التعليم لا يزال إلى حد كبير نتيجةً طبيعيةً لاستراتيجية الهجرة.

هؤلاء المهاجرون من الداخل، سدنة الجمهورية "خارج الأرض" يرون في بعض الأحيان اليمن كأنها "تعز الكبرى" في تعبيرٍ لا يخلو من الابتسامة. وبالتأكيد فإن وجودهم في ثنايا المجتمع قد غيَّر جذرياً المناطق اليمنية، فعلى مدى السنوات الخمسين الماضية، التحقت كل الأقاليم باليمن السفلي، عن طريق التعزيين أو الهجرة الداخلية، في رَكْب تجربة المرافِق الحديثة. ولكن الازدراء الذي يعانيه التعزيون يسهِم في تغذية مسلَّمة تشاؤمية حول إمكانية الجمْع بين القَبَلية والحداثة.

---

43 **وعلاوة على الهجرة الريفية من ضواحي صنعاء، في السبعينيات، فقد شكلت الجالية التعزية المغتربة بالمعنى الواسع (بما في ذلك التجار من عدن وجيبوتي) المدد الوحيد تقريباً للسكان من خارج المدينة. وللمزيد من التفاصيل، انظر المرجع التالي:**

Jean-Marc Prost-Tournier, « Sana'a. Présentation de la capitale du Yémen », Revue de géographie de Lyon, vol. 50, n° 4, 1975, p. 361-381.

وقد تراجعت هذه الهيمنة النسبية في التسعينيات .

مدنية ينبغي اكتشافها من جديد

وإن كان الاستخفاف من شأن التعزيين قد أسهم في الجمود السياسي، إلا أنه ينبُع أيضاً من تناسٍ للتجربة المدنية44. في الواقع، إن المدنية التي يتعامل بها أهل تعز المقيمين في صنعاء في التسعينيات ومطلع الألفية هي وريثة الثقافة الحضرية التي تكونت في عدن في الأربعينيات، من خلال مواجهة قواعد المستعمرة البريطانية. كما أنها وريثةٌ لتاريخ تعز في الخمسينيات عندما كانت عاصمةً للإمام أحمد وللجحملية، حارة بلاط الإمام وقواته القادمة من مناطق المرتفعات، والتي شكَّلت في وقتها رمزاً "للحداثة اليمنية". وأخيراً فإن الثقافة المدنية خاصّة هي وديعة الذاكرة السياسية للجمهورية الفتية.

في السنوات الأولى بعد ثورة 1962 أصبحت صنعاء هي العاصمة، ولكن تطورها ظل محدوداً بسبب الحرب الأهلية والقلاقل السياسية. بينما كانت تعز تستفيد من وجود الاستثمارات لرجال الأعمال والتجار من الجاليات المغتربة (خاصة مجموعة هائل سعيد) في ظل الحماس الوطني السائد آنذاك. وقد تعززت هذه الديناميكة انطلاقاً من عام 1969 من خلال التأميم في الجنوب الذي أصبح اشتراكياً. وهكذا أصبحت تعز مسرحاً للقاء مباشر بين الثقافات المدنية المتعارضة: فاصطدم التجار العائدون من عدن، بتنوعهم العالمي وثرائهم المادي النسبي، بوجاهة مدنية متخلِّفة لشيوخ محليين مهمّشين وعسكريين وموظفين حكوميين، بأجور منخفضة.

ومرة أخرى، شكّلت السبعينيات فترة تاريخية حاسمة، فلئن كان بقاء الجمهورية معتمداً على التوازن بين التجمعات القبلية الكبرى في مناطق المرتفعات، فقد جرى أول اختبار لمدى استقرارها في إطار التنمية الاقتصادية في تعز، وهكذا أعاد شيوخ المنطقة المهمّشون بعد ثورة 1962، توطيد نفوذهم تدريجياً عن طريق التحالف مع مصالح كبار التجّار وضبّاط الجيش وبعض الزعماء الدينيين. هذه الصيغة التي تم خلطُها في

---

44 **انظر المرجع التالي:**

Jocelyne Dakhlia, L’oubli de la cité. La mémoire collective à l’épreuve du lignage dans le Jérid tunisien, Paris, La Découverte, 1990.

"المرحَل التعزي" وفَّقت بين المصالح الاقتصادية، وبناء الدولة، والسياسة القبلية. وسيتم تصديرها، خلال العقود التالية، "وقائياً" في شمال البلاد من قِبل علي عبد الله صالح، باعتبارها مفتاح الاستقرار في المستقبل. لكن ذاكرة تأسيسها في بقية المناطق لم تكن أبداً بتلك القوة التي كانت عليها في تعز. لقد عاش سكان المناطق الحضرية، المسيَّسون إلى حدٍ كبير في ذلك الوقت، هذه الفترة المضطربة بشغفٍ كبير: الإرياني والمصالحة مع الملكيين (1970)، الفترة التقدُّمية أيام الحمدي (1974)، حرب العصابات أيام "الجبهات" الماركسية المموَّلة من الجنوب؛ اغتيال الحمدي ومرحلة "استعادة الحكم القبلي" أيام الغشمي وعلي عبد الله صالح (1978).

لكن الجماهير المتمدِّنة في تعز لم تكن تواكب هذه الانتقالات بصورة سلبية، بل حشَدت طاقاتها وفقاً لتقسيم لا يصعب التنبؤ به: فبينما توجَّه أبناء الجحْملية نحو الجيش وتنازلوا عن بعض القيم القبَلية القديمة، انساق أولاد التجار نحو الماركسية، وكانوا يفضّلون الشعر الطويل ويرتدون السراويل ذات الفتحات الواسعة. وحدثت احتكاكات واشتباكات متكرِّرة في المدارس الأولى التي بُنيت بفضل تبرعاتٍ من الدول الأجنبية، وكذلك في دور السينما.

لمواجهة هجمات الشباب "القبلي" من حارة الجحملية والمدينة القديمة، ظهر في بعض الحارات الجديدة قادةٌ ذوو هيبة[45] وبرزت أيضاً ظاهرة العصابات. فكلُّ انتقال سياسي يحمل في طياته جملة من التعبئة والتنقُّلات والاختلاطات بين كلتا المجموعتين المدنيتين. وخلاصة القول، تتحول تعز إلى مختبرٍ للمدنيَّة اليمنية، حيث يتم تطوير الثقافة الحضرية القبلية والمتمدِّنة في آن واحد، وتُنمِّي معها حسَّ المفارقات والتوريات.

يعتمد المشهد السياسي الراهن إلى حد كبيرٍ على تعز في تلك الفترة. ففيها بدأ القائد الشاب علي عبد الله صالح مسيرته السياسية في عهد الرئيس الحمدي[46]، وكثير من المثقفين والشخصيات المعارضة ترعرعوا فيها

---

45 **وللاطلاع على مثال معاصر لشخصية مهيبة تجمع بين التحصيل العلمي والأسلوب القبلي، راجع ما كتبه فانسون بلانيل في المقال التالي: "زيد، زعيم الحارة، تحليل اجتماعي لشخصية نافذة في الحارة:"**

Vincent Planel, « “Zaïd, Za’îm al-hâra”. Analyse sociologique d’un charisme de quartier », Chroniques yéménites, n° 12, 2005, p. 81-102.

ونستلهم هذا العرض لظاهرة "العصابات" في تعز إبان السبعينيات من شهادة السيد محمد جازم، وأحد من الذين أرّخ للقرون الوسطى التابعين لمركز الأبحاث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في صنعاء "سيفاس .CEFAS "

46 **انظر المرجع التالي:**

Paul Dresch, A History of Modern Yemen, op. cit., p. 128.

قبل أن يستقر بِهم المقام في صنعاء: الإسلاميون والاشتراكيون، ولكن أيضا وكذلك، على سبيل المثال، السيد عبد الكريم الخيواني، رمز التجديد لدى الزيْدية في العقد الأول من الألفية الثالثة، والذي نشأ في حارة الجحملية47. ولكن الصعوبات الاقتصادية التي ظهرت في أواخر الثمانينيات أضعفت تحالف النظام مع التجار من اليمن السفلي48، ويمكن تحليل الوحدة اليمنية في 1990 بمثابة هروب صالح نحو الأمام، لغرض تكريس الصيغة السياسية نفسها، وبعد مضي أربع سنوات، فرض الشمال بالقوة تقسيم الأدوار ذاتها: فإحالة العديد من ضباط الجيش الجنوبي للتقاعد المبكِّر يشبه إلى حد ما العقوبة التي تعرضت لها تعز في السبعينيات. فعند دراسة التاريخ من زاوية تعز، نجد أن التاريخ الحديث يظهرُ كأنه تكرارٌ متناسقٌ للنهج السياسي ذاته الذي يوسع من دائرة سطوته، أكثر من كونه تاريخاً مفتتاً.

تُرحِّل الدولة إلى صنعاء الفوائد التي تجنيها من تعز، والمرتبطة بنشاطها الصناعي، وقد دخلت المدينة بعدئذٍ في فترة من التراجع بسبب إهمال البنى التحتية الحضرية. فخلال أشهر طويلة من ثورة عام 2011، أصبحت تعز أكثر من أي وقت مضى المدينة التي لا بد للنظام الحاكم من القضاء عليها، وفي الوقت نفسه، لا يزال المجتمع الدولي تائهاً بسبب ألاعيب النظام الماكِرة المتعلقة بالحرب على القاعدة، بحيث يرفض كما يظهر بوضوح تفهُّم الدور الذي تمثِّله تعز لمستقبل البلاد. ومع ذلك فإن التعزيين هم قناة الاتصال المثلى مع الزوار الأجانب: فمنهم المترجمون والوسطاء والمخبِرون والسائقون للسفارات والجامعيون التقدميون ومؤسسو الجمعيات غير الحكومية. وتنبثق هذه الخصوصية الإقليمية الإضافية من تقاسم الأدوار ذاتها: فتقريباً نجد على جميع المستويات، رجل القبيلة " يقف أمام الكاميرا" بينما "يتواطأ" معه البرغلي. فعلى مدى نصف قرن، كانت تعز الوسيط لحداثةٍ اعتبرت أجنبية ويُشتبهُ في تركيبتها الهجينة غير الشرعية. وحتى اليوم، فإن زاوية

---

47 **انظر المرجع التالي: لوران بونفوا " العلاقات الدينية الدولية المعاصرة بين اليمن والمملكة العربية السعودية"، رسالة دكتوراه في العلوم السياسية، باريس، :2007**

Laurent Bonnefoy, Les relations religieuses transnationales contemporaines entre le Yémen et l'Arabie saoudite. Un salafisme importé ?, thèse en sciences politiques, Paris, IEP, 2007, p. 356.

48 **انظر المرجع التالي: أبو بكر السقاف "مشاكل الوحدة اليمنية "**

Abu Bakr al-Saqqaf, « Problèmes de l'unité yéménite », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, vol. 67, n° 1, 1993, p. 95-108.

النظر التعزية قد تُشوِّش على تناسُق التاريخ اليمني، وتعطي الانطباع بعبثية أساسية في هذا التاريخ، لتبرير سياسة تقوم على تقديس مبدأ "الأمن والاستقرار".

(مايو– أكتوبر 2011)